

قراءة نقدية لكتاب..

جماليات النص الشعري للأطفال

أحمد فضل شبلول



هذا هو عنوان الكتاب الذي صدر في أغسطس ١٩٩٦م عن الشركة العربية للنشر والتوزيع بالقاهرة من تأليف الشاعر الناقد أحمد فضل شبلول. وقد سعدت بصدور هذا الكتاب لأسباب كثيرة اتضح لي أن الناقد كان على وعي تام بها عندما أقدم على تأليف كتابه، إذ وجدته ينص في المقدمة على زيادة الاهتمام بأدب الطفل في السنوات الأخيرة، حيث أصبح يمثل ضرورة عصرية ملحة بعد أن كان ينظر إليه على أنه أدب من الدرجة الثانية أو الثالثة. ولهذا تبارى الكتاب والشعراء من كل أنحاء

العالم العربي في الكتابة للأطفال نثرا كانت أم شعرا. وإذا كانت الكتابة النثرية قد خطت خطوات كبيرة حتى صار هناك كثيرون يتخصصون فيها مثل عبدالقواب يوسف ويعقوب الشاروني وغيرهما، فإن متابعة جهود اثنين وعشرين شاعرا في كتاب أحمد فضل شبلول يدل على أن الشعراء أيضا باتوا مقتنعين بأهمية هذا اللون الشعري، حتى وإن لم يقصروا جهودهم عليه بالكامل. وإذا كان أحمد شبلول قد لاحظ غياب المتابعات النقدية لما كتبه شعراؤنا المعاصرون للأطفال، فإن

كتابه حريٌّ بأن يفتح نافذة في هذا الحقل الأدبي، وأن يلفت الانتباه إلى أن هناك أدبا عن الطفل يتشكل ويزداد نمواً، وأن علينا أن نتابع هذه الإبداعات بالدرس النقدي الموضوعي والمشاركة الفعالة بوصفنا قراء يمكن أن نسهم في إنتاج المعنى وتأصيله وتعميقه بما يتناسب واللحظة المعقدة التي يعيشها أطفالنا الصغار، إذ تنهال على رؤوسهم الغضة ملايين الصور المتحركة من الأقمار الصناعية المنتشرة في

أرجاء المعمورة. ولا أقل من أن نفتح لهؤلاء الأطفال نافذة يطلون منها على ألوان من الثقافة الجادة التي تكون لهم بمثابة درع يحتمون بها من تلك الهجمات الفضائية المتخصصة، في فنون الرقص والكرة والأفلام، وهي فنون تجثم بكلها على الكبار والصغار معا.





بقلم الدكتور

حامد أبو أحمد*

٩ - يعد التوظيف الشعري للحديث النبوي الشريف خطوة متقدمة وهادفة على طريق النص الشعري المكتوب للأطفال.

١٠ - على الشاعر أن يتخلص من بعض الصور الشعرية المركبة التي يصعب على الصغير فهمها. كما أن على الشعراء أن يتوخوا الأساليب السهلة والمفردات البسيطة حتى تكون أشعارهم على مستوى فهم الطفل. ولا شك أن هذا المعيار قد لقي اهتماما كبيرا من جانب المؤلف على نحو ما سوف نرى فيما بعد.

١١ - إن الشعر التعليمي الموجه للأطفال يجب ألا يخرج عن مقوماته الأساسية بوصفه شعرا، وإلا تحول إلى نظم بارد لا روح فيه ولا حياة.

١٢ - ولا ينسى المؤلف أن يؤكد على دور موسيقى الشعر في جذب الأطفال إلى القصيدة، واستمالتهم إليها بالإيقاعات السهلة المنظمة، واللغة الموائمة الموحية، فضلا عن وحدة الموضوع، التي تمثل قاسما مشتركا في قصائد الكبار والصغار على حد سواء. ثم إن الشاعر مطالب بتقديم رؤية متفائلة للبلاد والناس، وللأرض والوطن؛ حتى نزرع روح الثقة والتفاؤل والصداقة والمحبة وغيرها من القيم السامية في نفوس الأطفال البريئة.

هذه، باختصار هي القواعد أو المعايير التي انطلق منها المؤلف في نقده للقصائد والدواوين. ومن حقه علينا أن نقول إنه طبقها بشكل جيد ومطرد في

«الجمالية» ترقى إلى مرتبة القاعدة العامة، أو ترقى إلى ما يمكن تسميته بعمود النص الشعري للأطفال إن صح التعبير (انظر صفحة ٢٢١).

يمكننا إذن أن نضيف إلى المعيارين السابقين (الرؤية الإسلامية والوظيفية الاجتماعية للنص) المعايير أو القواعد التالية التي اعتمدها المؤلف، والتي نستخلصها من الجماليات» فيما يلي:

٣ - إن النصوص المكتوبة للأطفال ينبغي أن تمر بالحركة والحيوية والنشاط، وكأنها أطفال تجري وتلعب وتقفز وتروح وتجيء أمامنا.

٤ - تمثل الطبيعة عنصرا مهما في شعر الأطفال، ويحرص جميع الشعراء الذين يكتبون للأطفال على أن ينهلوا من هذا العالم الثر.

٥ - إن الشعر المكتوب للأطفال لا بد أن يعكس الحس الطفولي، والمرح، والبهجة، والحركة الوثابة، والبسمة العذبة، والضحكة الطفولية الصافية.

٦ - قصيدة الطفل يجب أن تكون موجهة إليه، ومن ثم فإن ما يكتبه بعضهم لنفسه قاصدا بذلك الطفل لا يدخل ضمن أدب الأطفال.

٧ - يجب أن تكون القصيدة مواكبة لروح العصر الذي نعيش فيه ولمفرداته التي تسلمت إلى حياتنا. والشاعر المعاصر الناجح - في رأي المؤلف - هو الذي يربط هذه المفردات بالمفردات الأخرى الإيمانية بطريقة منسجمة وغير مفتعلة.

٨ - ينبغي على الشعر المكتوب للأطفال أن يقترب من الحقائق العلمية، والمنجزات والاختراعات الإلكترونية التي يراها الأطفال يوميا ويتعاملون معها.

ولا أدري هل كان المؤلف على وعي بهذه الأخطار التي يتعرض لها الطفل عندما ركز في كتابه على الحس الإسلامي؟ أم أنه انطلق أساسا من رؤية إسلامية جوهريّة يرى أنها ينبغي أن تكون الأساس في التناول النقدي بصرف النظر عن أية أخطار؟ ولا شك أنني أميل إلى الأخذ بالنقطة الثانية، حيث نصّ عليها المؤلف بصراحة ووضوح في مقدمته القصيرة عندما قال: «إن هذا الرصيد من النصوص الشعرية المكتوبة لأحبائنا الصغار، والتي ظهرت في العقود الأخيرة يغري المهتم والباحث والدارس بالوقوف أمامه والتأمل فيه. ومن هنا جاءت هذه الدراسة التي لا تزعم لنفسها الإحاطة والشمول بكل ما كتب خلال هذه العقود، ولكنها تزعم أنها تنطلق من الرؤية الإسلامية الصافية التي تنمي في صغارنا الإحساس والتذوق الجمالي للكون وللحياة وللإنسان، وتبث فيهم قيم الحق والخير والجمال والحرية» (ص ٣). وبذلك يكون الناقد قد حدد منذ البداية معايير النقد القائمة على رؤية إسلامية صافية لها وظيفة اجتماعية تتبع الفعلان «تنمي» و«تبث» في الفقرة السالفة الذكر. ولا شك أن الخاتمة التي وضعها المؤلف في نهاية الكتاب (من ص ٢٣١ إلى ص ٢٤٢) عن الجماليات تمثل قواعد معيارية استند إليها المؤلف في نقده لهذا النص الشعري أو ذاك. وعلى الرغم من أنه نظر إليها على أنها نتائج وظواهر وملاحظات أو بتعبير آخر خاتمة ونتائج، إلا أنه رأى أن بعضها يرقى إلى مستوى الجماليات التي يجب توافرها في كل نص شعري يكتب للطفل. ولم يفته أن ينص على أن

● انطلق الناقد من رؤية إسلامية

تنمي في الأطفال التذوق الجمالي

في شعر الأطفال ينهل منه الشعراء

دراساته التي شملت اثنين وعشرين شاعرا عربيا. ولن نتوقف عند تطبيقاتها جميعا، وإنما سوف تختار بعضها فقط: لنرى كيف كان المؤلف حريصا على أن يرى هذه القواعد ملتزمة بصورة واضحة وصريحة في دواوين الشعراء. ولنبدأ بالحس الإسلامي: فكثيرا ما ينبه الناقد إلى وجود الحس الإسلامي في قصائد هذا الشاعر أو ذاك. يقول مثلاً عن الشاعر «بهاء الدين عبدالموجود» ومجموعته «مطلع الفجر»: «ومن خلال هذه المنظومة وبقيّة المنظومات نلاحظ أن الحس الإسلامي المباشر يتغلغل في كل قصائد المجموعة. وبطبيعة الحال تكون منظومة «قوموا صلوا» ومنظومة «دعاء» من أقوى المنظومات التي تغلغل إليها هذا الحس» (ص ٤٧). ويقول عن توظيف الأحاديث النبوية في نقده لديوان «أغاريد الأطفال» للشاعرين محيي الدين سليمة وموفق سليمة: «على أن أهم ما في هذا الديوان هو المجموعة الشعرية الأولى «قبس من رسول الله» وفيها يوظف الشاعران بعض أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم. ففي كل قصيدة نرى توظيفاً شعرياً لحديث من أحاديث الرسول يتناسب مع سلوكيات الأطفال. وقد يرقى هذا التوظيف أحيانا إلى شرح الحديث النبوي بالشعر المناسب لمدارك الأطفال وسنهم (ص ٧١) (١). وعندما يفتقد الناقد الحس الإسلامي كثيرا ما ينبه إلى ذلك، كما نجد في صفحات ٢٨، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١.

أما عن الطبيعة وأهميتها في الشعر المكتوب للأطفال فإن الشاعر يلح كثيرا على هذه المسألة. يقول مثلاً في صفحة ٨٣: «في هذا الكتاب تحدثنا عن دواوين كاملة اتخذت من الطبيعة خلفية لها أو مسرحاً أو عالماً محبباً للطفل. وقد تمثل عالم الطبيعة في هذه المجموعة في الديك الذي يؤذن للصباح، والليل الذي

يسرع الخطى ويبدأ الرحيل، والشمس التي تالأت بوجهها الصقيل، والبلبل الغريد بلحنه الجميل.. الخ».

وفيما يتعلق بموسيقى الشعر نجد الناقد يختم كل دراسة بكلمة عن البحور الشعرية المستخدمة، وهو يفضل دائماً البحور المجزوءة، ويبحث دائماً عن الخبب الذي عادة ما تعلو نسبته بين البحور الأخرى، يليه في معظم الأحيان مجزوء الرجز. وولع الأخ أحمد شبلول بالبحور الشعرية عادة قديمة نعرفها عنه، وقد أفادته كثيراً في هذه الدراسات ومنحتها أبعاداً عميقة، إضافة إلى ما اشتملت عليه من بُعد إحصائي يفيد جيداً في هذا اللون من الدرس الأدبي. وكثيراً ما يربط الناقد بين البحور الشعرية وطبيعتها الجمالية والدلالية والتداولية. يقول مثلاً في ختام دراسته عن ديوان «مذكرات فيل مغرور» للشاعر حسين علي محمد: «اعتمدت القصيدتان على تفعيلات بحر الخبيب (وهو صورة من صور بحر المتدارك)، وكذا كل قصائد المجموعة الشعرية التي نحن بصددّها. وهذه التفعيلات تتدفق بين يدي الشاعر الجيد الذي يستطيع أن يضبطها ويسيطر على إيقاعاتها. ذلك أن تفعيلات الخبيب - على وجه التحديد - إذا لم يتمكن الشاعر من السيطرة عليها فإنها تسحبه إلى عالم الثثرة اللفظية، وإلى دوامة التعبير النثري.. الخ» (ص ٦٩).

نأتي إلى مسألة مناسبة القصيدة لهذه السن أو تلك وعدم المناسبة فنجد أن الناقد - كما أسلفنا - قد أولى هذا الجانب أهمية كبيرة، حتى ليتمكن أن يقول إن معظم الدراسات تشتمل على فقرات من هذا القبيل (٢). ولنأخذ على سبيل المثال قصيدة من ديوان علال الفاسي صفحة ١٠١ أوردها الناقد كاملة (١٤ بيتاً)، ونكتفي منها هنا بالآيات الأربعة الأولى التي تقول:

إذا جاء إبان الربيع وأينعت
غصون وهبت رائحات الأزهار
فللقرويين العظيمة محفل
له موكب بين الرياض
الزواهر (٣)

تقوم له بين المحافل دولة
لها ملك من بينهم غير قاهر
يتم به في شاطئ النهر نزهة
مضاربها تزهو بوادي
الجزاهر

وقد رأى أحمد فضل شبلول أن هذه القصيدة رائعة لغة ووصفا وحماسة، فضلاً عن أنها تحمل قيماً علياً وتتغنى بالعلم وأمله، ولكنها لا تصلح لأن تكون بين دفعتي مجموعة شعرية للأطفال بكل مراحلهم المختلفة. أي أن هذه القصيدة - في رأي الناقد - لا تصلح لأي مرحلة من مراحل الطفولة التي يصفها عادة بالأولى أو المتأخرة.. الخ ونحن نوافق أحمد شبلول على أن هذه القصيدة أرفع من مستوى الطفل أياً كانت مرحلته. ولكن المشكلة أنه في أعمال أخرى يطبق هذا الرأي على قصائد شديدة السهولة والوضوح، مثل قصيدة «الدين للديان» من ديوان «الفارس المغرور» لأحمد الحوتي (ص ٢٦). تقول بعض أبيات القصيدة:

أحبائي وأصحابي
سمعت اليوم من جدي
كلاماً

كان يقرؤه من القرآن
وقالت جدتي يوماً لجارتنا:
بأن الدين للديان
وقالت جدتي أيضاً:
بأن الناس في وطني
لهم تاريخ
وأن المجد للخالق
وللاوطان

وقد أخذ أحمد شبلول على هذه القصيدة أنها تقترب من موضوعات دينية قد لا تناسب هذه السن التي يكتب لها الشاعر. ولا شك أن هناك قصائد أخرى مثلها لأن الشاعر أخذها مثلاً على هذا المأخذ الذي ارتآه في

القصاصد الأخرى التي كتبها أطفال بولتون وأحسست أمامها أنني إزاء قصائد لشعراء كبار. ولماذا نذهب بعيدا وهناك شعراء عرب مشهورون كتبوا في طفولتهم قصائد لا تكاد تقل عن إبداعاتهم في مراحل النضوج، ويحضرني الآن من بينهم اسم المرحوم الدكتور إبراهيم ناجي.

ولعل من أعجب وأغرب ما صدر من شعر للأطفال هو كتاب الشاعر الإسباني خوان رامون خمينيث تحت عنوان «حماري وأنا»، وقد ظهر أول ما ظهر عام ١٩١٤م في طبعة مدرسية ضمن سلسلة مكتبة الشباب» وقد صدر الشاعر هذه الطبعة بكلمة تحت عنوان «بيان للكبار الذين يقرؤون هذا الكتاب للأطفال» جاء فيها: «هذا الكتاب الموجز الذي يقترن فيه الفرح بالألم اقتران توأمين كأنهما أذنا بلاتيرو (اسم الحمار) كتب لـ.. لا أدري لمن.. لمن نكتب نحن معشر الشعراء الغنائيين.. والآن وهو موجه إلى الأطفال لن أحذف منه ولن أزيد عليه فاصلة. ما أجمل هذا!!» (٤) وهذا التقديم كما هو واضح يضعنا أمام

ساعة ذهبية بـ «سير» مهترئ زوج من الأخفاف يتعذر لبسهما خيط من اللؤلؤ اصفر من مرور الزمن عليه سوف لن يرتديه أحد لسنين قادمة أخرى كلما فتحت الدولاب تتدحرج إحدى الذكريات نحوي وتسقط ميتة فوق الأرض ألتقطها، وأنظر للزمن الماضي ثم أعيدها حية هي والأفكار التي صحبتها أحيانا أتساءل إن كانت تستطيع أن ترانا الآن، وتعرف أن بضاعتها اللفظية الباقية حقيقة في الطريق وأن الفراغ الذي تشغله يمكن أن يكون لأداة أو آنية ولكنها يمكن أن تستريح، لأن الزاوية التي تشغلها سوف تظل دائما ذكريات

فهذه قصيدة لو لم تعرف أنها لطفل في الصف الخامس لتصور أنها لشاعر كبير. وقد علق بولتون عليها بقوله: «إن قصيدة الشاعر جورج ماكث وراء هذه القصيدة التي يتوافر فيها نوع من الخلود». والقصيدة أقوى بكثير من قصائد عربية اعتبرها الشاعر غير مناسبة لسن الطفولة. وقل مثل ذلك في

ديوان أحمد الحوتي. ومن المفارقة أن الدراسة التالية مباشرة لتلك، وهي عن ديوان «ضحكة القمر» لأحمد زرزور بها قصيدة تنطوي على ضرب من التجريد وفيها شاعرية محلقة لو أخذنا بالمعيار السالف الذكر لوجدناها تعلو كثيرا على أفهام الطفل في أي مرحلة، ومع ذلك لم يعلق عليها ناقدنا بشيء، بل إنه مثل بها للقصائد الجيدة التي تقترب من الطبيعة وعنوان القصيدة «لماذا لا يتوقف الجدول»، ولنقتطع منها الأبيات التالية:

دعوت جدولي الصغير أن يقف في الظل لحظة ليستريح!
فقال وهو يسرع المسير:
رب زهرة صغيرة تجف
هناك في السفوح
... الخ (ص ٢٩)

والحق أن استخدام الناقد لمعيار المناسبة لسن الطفل يحتاج إلى مراجعة قوية، في إطار رؤية شاملة للعمل برمته. وإذا كنا قد رأينا كثيرا من القصائد أو المجموعات التي اعتبرت من قبل الناقد غير مناسبة لسن معينة أو للطفولة بشكل عام، ورأينا في الأمثلة السابقة التذبذب الواضح في المعيار، وكأنما يستند الناقد إلى رؤية ذاتية خالصة، فإننا سوف نتوقف الآن عند دراسة مهمة وردت في ملحق «المراجعات» تحت عنوان: أريك جي بولتون وكتابة الشعر في المدارس. وهذه تجربة مهمة نفذها الناقد الإنجليزي المذكور وضمنها كتابه المعنون «كتابة الشعر في المدارس» والذي ترجمه إلى العربية ياسين طه حافظ. وقد طلب بولتون من تلاميذه أن يكتبوا شعرا حول موضوع معين يطرحة عليهم. والحق أن بعض القصائد التي كتبها وأوردها أحمد شبلول قوية جدا. ولأخذ على سبيل المثال قصيدة بعنوان «ذكرى» كتبها طفل في الصف الخامس، تقول:



● شعر الأطفال يعكس الحس الطفولي

والبهجة والحركة الوثابة

مشكلة هي: هل كتبت مرثية «حماري وأنا» من أجل الأطفال (أولهم)؟ أم أنها قطع من الشعر المنشور الغنائي الذي رأى الشاعر أنه يصلح للأطفال كما يصلح للكبار؟ أغلب الظن عندي أن فحوى هذا السؤال الثاني هي الأساس الذي استند إليه خوان رامون عندما وافق عام ١٩١٤م على تقديم طبعة مخصصة من كتابه للأطفال. ويعزز هذا الرأي المقدمة التي كتبها طبعة دار نشر تاوروس وظهرت لأول مرة عام ١٩٥٩م أي بعد وفاة الشاعر بعام واحد تقريباً. قال في هذه المقدمة: «يعتقد عادة أنني كتبت «بلاتيرو وأنا» من أجل الأطفال، وأنه كتاب للأطفال. كلا. ففي سنة ١٩١٣م طلب مني المشرفون على سلسلة «القراءة»، وكان لديهم علم أنني مع هذا الكتاب، أن أوافيهم بمجموعة من الفصول تصلح لمكتبة الشباب. وعندئذ قلبت الفكرة على وجوهها وكتبت المقدمة التالية (يقصد بها البيان السالف الذكر) لكن الحقيقة هي أنني لم أكتب ولن أكتب أبداً للأطفال، لأنني اعتقد أن الطفل يمكنه أن يقرأ ما يقرؤه الرجل مع بعض الاستثناءات التي تحدث للجميع. أيضاً ثمة استثناءات عند الرجال وعند النساء».

ولا شك أنه من الأنسب أن نسوق مثلاً من هذه الأشعار التي يرى خوان رامون أنها تصلح للصغار ولل كبار معاً. يقول في الفصل رقم ٩ الذي يحمل عنوان «التين»: «كان الليل نائماً تحت أشجار التين المعمرة مئات السنين بجذوعها الرمادية التي تتصل بأطرافها القوية في الظل البارد كأنها تحت رداء، وكانت الأوراق العريضة التي وضعها آدم وحواء تخرن نسيجا رقيقاً من لؤلؤ قطر الندى الذي تميل معه خضرتها الناضرة إلى شحوب، ومن هنالك جعل يتراءى بين الياقوتة السفلى الفجر وهو يصبغ بلونه الوردي حجب المشرق التي

الناس في الشارع يقوم معظمها على المجاز فماذا يستطيع الشاعر أن يفعل؟! وإذا كان الطفل يمكن أن يجد غموضاً في البيتين المذكورين فهل من السهل أن نعلمه سورة «الفاتحة» أو سورة «الفيل» أو سورة «القارعة» مثلاً؟!!

نأتي إلى المثال الثاني المقتطع من قصيدة «القمر». يقول الشاعر علي الشرقاوي:

قالوا
ما أكثر ما قالوا
قمر الدنيا سوف يموت
ببطن الحوت

ويعلق أحمد شبلول على الأبيات قائلاً: «هنا نعود مرة أخرى إلى حالة الغموض، وكيفية تصور الطفل للقمر الذي يموت ببطن الحوت، وأعتقد أنه ليس من السهولة بمكان أن يتخيل طفل هذه المرحلة كيف يموت هذا القمر في داخل بطن الحوت، إنه يحتاج إلى ربط أشياء كثيرة ببعضها البعض كي يتوصل إلى فهم أو إدراك هذه الصورة. عليه أن يتخيل بطن الحوت وظلمته ودخول القمر أو ضياء القمر إلى هذا البطن وما إلى ذلك. إن هذه العلاقات من الصعب على الطفل إقامتها. لذا فإن أسهل شيء يفعله هو أن يصرف نظره أو تفكيره عن هذا المعنى، وهو الشيء الذي سيكون ضد هذا العمل الشعري ومثيله».

●●●

المشكلة، إذن، كما هو واضح في «القمر» هذا المجاز الجميل، كيف يدخل بطن الحوت، والطفل لا يستطيع أن يفهم إلا شيئاً حقيقياً كالغذاء مثلاً أو الحيوان الذي يلتهمه الحوت فيدخل بطنه! إنها أيضاً مشكلة الحقيقة والمجاز. وأنا لا أريد أن أسترسل في هذه النقطة، وإنما أطلب فقط من الأخ أحمد شبلول أن يراجع أحكامه بشأن معيار «المناسبة لسن الطفل» على ضوء مفاهيم كثيرة تدخل فعلاً ضمن جمالية الكتابة للأطفال. وعندئذ سوف يقدم بحثاً في جمالية النص الشعري للأطفال بدلاً من قصر الجماليات على الخاتمة

لا لون لها» (٥).
فماذا يقول الأخ أحمد شبلول في هذه الأبيات 'إننا إذا طبقنا عليها معيار المناسبة الذي طبقه على امتداد كتابه فسوف نجد أنها من المستحيل أن تناسب أي سن من سني الطفولة. وقد سبق أن ذكرنا مثلاً من الشعر الذي رآه الناقد أعلى من مستوى الأطفال، والآن نضيف مثالين آخرين من الدراسة الخاصة بالشاعر علي الشرقاوي (ص ١١١ وما بعدها). يقول الشاعر في قصيدة «أطفال»:

نبني مُدُنًا فوق الصخر
نزرع شجراً فوق البحر

ويعلق الناقد على هذين البيتين قائلاً: «ولعل الطفل الذي سيقراً هذا المقطع سيتساءل: كيف يزرع الشجر فوق البحر؟ وخاصة بعد أن تصور أو تخيل بناء المدن فوق الصخر. لا شك أن زراعة الشجر فوق البحر صورة شعرية جميلة، ولكننا نتعامل في مجال النص الشعري المكتوب للأطفال، أو في مجال أدب الأطفال الذي له شروطه وجمالياته ومقاييسه الخاصة التي تحكم توجه الشاعر الفني. وأعتقد أن هذه الصورة الشعرية (زراعة الشجر فوق البحر) ليس من السهل على الطفل أن يدركها، ويدرك ما ترمي أو تهدف إليه. فالزراعة عند الطفل مرتبطة بالحقل والنهر، أما الزراعة فوق البحر فلن تمثل إلا غموضاً في المعنى وعدم الفهم الذي ربما يسبب له خللاً في استقبال النص كله».

وقد نقلنا الفقرة السابقة كاملة لنستخلص ما بها من مبدأ خطير وهو أن الكتابة للطفل يجب أن تأتي على الحقيقة فقط، لأننا إذا استخدمنا المجاز فسوف يؤدي ذلك إلى الغموض في المعنى، وإلى عدم الفهم بالنسبة للطفل.. وإذا كانت اللغة العادية التي يستخدمها



والنتائج (حوالي عشر صفحات) في آخر الكتاب. وكما كان جميلا الفصل الخاص بالمراجعات ووضع بوصفه ملحقا. فقد قدم الناقد في هذا الملحق عرضا لأربعة كتب مهمة في أدب الطفولة لكل من أحمد زلط، وأحمد سويلم، وأريك جي بولتون، وعبدالفتاح أبو معال. وأنا أعتقد أن الناقد يستطيع أن يواصل البحث فيما كتبه الآخرون، ويقدم عملا مهما عن أدب الطفولة لا يقتصر على قراءة مجموعة من الدواوين كل على حدة، بل يقدم رؤية متعمقة ونافذة لمشكلات وخصائص وفروع هذا الأدب الذي يلقي حاليا اهتماما كبيرا من المثقفين.

ومما يحمد لأحمد فضل شبلول في هذا الكتاب أنه لم يتردد أبدا في إبداء رأيه سواء بالإيجاب أو بالسلب، وتحس من ثم وأنت تقرأ الكتاب أنك أمام ناقد واثق من نفسه، ينقد الأخطاء وينبه إليها، ويطلب الشاعر بالتزام نهج آخر قد يحدده له، وإن كان كثير من المآخذ له صلة بمسألة المناسبة المذكورة، أو بمعيار الحس الإسلامي، إضافة إلى الأخطاء في الوزن أو في اللغة. ومن أمثلة مآخذة الموفقة تعليقه على الأبيات التالية التي تقول:

قد جئت يا صغار
فغادروا السرير

...

قد جئت في الصباح
فاستيقظوا معي

ويلحق أحمد شبلول: «وفي هذه القصيدة وضع الشاعر يده على نسيج شعري جيد، لكنه لم ينجح في نسج الخطوط النهائية، ونكاد نحس أن هناك أشياء لم يقلها الشاعر. وكان من الممكن أن تتحول هذه القصيدة إلى حوار بين الشمس والأطفال» (ص ٣٤).

ولكن الوقوف عند المآخذ يأتي أحيانا وفيه كثير من الشطط. ومن أمثلة ذلك هذا البيت:

قلمي أخضر حسن المنظر
الذي علق عليه الناقد بقوله:
«ونتساءل: لماذا اختار الشاعر اللون

الأخضر على وجه التحديد؟ ولماذا لا يكون القلم أحمر مثلاً أو أصفر أو بنياً أو أسود.. الخ؟ إن تحديد اللون هنا يضر بالعمل الفني أكثر مما يفيد. ذلك أن الطفل الذي يقرأ أو يسمع مثل هذه المنظومة إذا لم يكن لديه قلم أخضر فإنه سيحزن كثيرا، ولعله يطلب من أبويه شراء قلم أخضر كالذي يتحدث عنه الشاعر.. الخ» (ص ٤٩).

ويبقى أن هذا الكتاب سوف يلعب دورا مهما في التنبيه إلى أهمية أدب الأطفال، وإلقاء الضوء على جهود اثنين وعشرين شاعرا قدموا مئات النصوص الشعرية في هذا المضمار، ولعل هذا يؤدي إلى زيادة الاهتمام بهذا النوع من الأدب، وقد يهرع عدد من النقاد إليه عندما يعثرون فيه على ضالتهم المنشودة. وبذلك يتحقق الهدف الذي رمى إليه أحمد فضل شبلول عندما قام بتأليف هذا الكتاب.

الهوامش

* د. حامد أبو أحمد: أديب وناقد مصري، يعمل حالياً أستاذاً مشاركاً في كلية اللغات والترجمة بجامعة الملك سعود في الرياض مغاراً من جامعة الأزهر.

من مؤلفاته: «دراسات نقدية في الأدب العربي والأسباني»، و«نظرية المتلقي» (١) عن الحس الإسلامي وتوظيف الأحاديث النبوية يمكن للقارئ مراجعة الصفحات التالية: ١٨٦، ١٥٠، ١٣٠، ٩٧، ٧٦، ٥٨.

(٢) انظر مثلاً صفحات: ٩٨، ١٠١، ١٠٥، ١١٢، ١٣٢، ١٦١، ١٦٢، ١٧٣، ١٨١، ١٨٧، ١٩٠.

(٣) يريد: جامعة القرويين العظيمة. (٤) هذه هي ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع، وقد نشرتها دار المعارف بمصر عام ١٩٥٩م تحت عنوان «أنا وحماري مرثية أندلسية، ص ١٠.

(٥) المرجع السابق، ص ١٩.

(غرفة في نُزل فقير، شاعر شاب
منحن على مائدته، منهمك في
الكتابة، شعره مشعث على
ناحيتين، في يده قلم، وأمامه
أوراق مضطربة التنظيم، كتب
مكومة على المائدة في غير انتظام،
على المائدة أيضا شمعة قد أشعلت
حديثا، سرير حديدي، فراش
السريير غير مرتب، ذلك لأن
الفراش بقي كما هو عند قيام
الشاعر من النوم. وعلى المائدة
الصغيرة الملاصقة للسريير، كوب
ماء آسن وساعة منبه.. ودولاب
صغير قديم على جانب منه درج
مفتوح. ويتدلى من هذا الدرج
المفتوح قميص قديم مهمل، وعلى
الدولاب الصغير مرآة قديمة
باهتة، مثبت على إطارها بطاقات
بريدية قديمة. وفي وسط الغرفة
مدفأة تعمل بالكيروسين. على
فتحة المدفأة سناج أحده لسان
خفيف من اللهب. وعلى الجدار
صورة تمثل امرأة نصرانية
يونانية، هي صاحبة النُزل،
التقطت هذه الصورة لها أيام
شبابها. واضح من النافذتين
الصغيرتين المقوستين أن موقع
الحجرة فوق السطح).

ذو الوشاح الأسود

يدور المفتاح في القفل)

الشاعر: من أنت؟

الصوت: لا داعي للخوف. ارفع الشمعة ودقق

النظر في وجهي!

الشاعر: إنني لا أرى شيئا سوى وشاحك

الأسود. ولكن ما هذا؟ أقلنسوة تلك التي فوق

رأسك؟ وجهك غير واضح البتة. أين وجهك؟

الصوت: (قهقهة) إن وجهي هناك حيث تكون

روحك.

الشاعر: قل لي، من أنت، وماذا تريد؟ هيا

أفصح بسرعة!

(صوت دقات الساعة، وكذلك صوت خمس

طرقات متتالية على الباب)

الشاعر: من؟

الصوت: أيها الشاعر، افتح الباب!.. هانذا قد

جئت!

الشاعر: من أنت؟!

الصوت: أنا الرجل الذي تنتظره!

الشاعر: أنا لا أنتظر أحدا!

الصوت: خذ الشمعة وتعال! افتح الباب

وانظر إلى وجهي!

(وقع أقدام متجهة نحو الباب مباشرة -

للكاتب التركي / نجيب فاضل *

ترجمة / د. ماجدة مخلوف ■

الصوت: ائذن لي أولاً أن أدخل الغرفة. ومن ثم أحدثك عن كل شيء عني.
الشاعر: لا يمكن أن أدعك تدخل إلا إذا عرفت من تكون.

الصوت: يدك ترتعش أيها الشاعر! إنك بذلك تُسقط شمعك من شمعدانها. فكر في الظلمة بقلبها الأسود! سواد لون القطران!
الشاعر: قلت لك من أنت!

الصوت: وماذا ستفعل إذا عرفت من أكون؟ بل إنك تعرف من أكون؟ شاعر يعني عاشق الجهول! أفسح الطريق ودعني أمراً!
الشاعر: لم أفهم شيئاً قط.

الصوت: أشرك لاستقبالك لي في غرفتك المتواضعة.

(الباب في انغلاقه أقرب إلى الصوت المكتوم)

الشاعر: ما بالك تسيّر وكأنك لا تلامس الأرض.. وما هذا الوشاح الحالك السواد المنسل من ذقتك حتى كعبك؟ وكأن قلب القلنسوة التي فوق رأسك فارغ. صوتك غريب، كما أن ضحكك تبدو غريبة. إن في صوتك صغيراً قادماً من جهنم. يبدو أنك جني من الجن؟
ذو الوشاح الأسود: أنا لست جنياً. وما الجن إلا خدم لي.. إنهم كواؤون لوشاحي.
الشاعر: إنك تخيفني!

ذو الوشاح الأسود: أتتحدث عن الخوف؟ باللعيب! دع الخوف لصغار العصافير والأفراس الصغيرة! هل الخوف من شيم الإنسان؟ هيا قف لأنني لا بد أن أجلس الآن على هذا الكرسي المكسور. أوه، إن أدراج خمسة طوابق أعبت ساقي وركبتي تماماً. أعرف مدى التعب الذي قاسته ركبتي؟ لقد قاست ما قاسته الدنيا منذ خلقت. (لحظة صمت، تعقبها قهقهة) يبدو أنك لا تدفع أجراً معقولاً، حتى أقت بك العجوز الشمطاء صاحبة النزل فوق هذا السطح. يالها من شمطاء. منذ لحظة قلبت صندوق الخبز الفارغ في المطبخ؛ فاستيقظت. وأدارت هذه العجوز الشمطاء مفتاح الكهرباء، وما أن فُلت ذلك حتى وجدت طبقة من الظلام وقد أضيفت إلى الظلام نفسه. ذلك لأنني كنت قد قطعت سلك التيار الكهربائي. وبينما أنا على ذلك، إذ بك أنت تنادي لتطلب منها شمعة. فقلت يجب أن أزورك في حجرتك أثناء اشتعال الشمعة. لأن ضوء الكهرباء مغرور أحمق، يظن أن قياس المسافات لا يكون إلا بالبرجل والمسطرة.
الشاعر: هل أنا في حلم؟

ذو الوشاح الأسود: لست في حلم. لأنك - إذا أردت - يمكنك أن ترى ما يمكن أن تحلم به، وما لا يمكن أن تحلم به. يمكنك أن تغربل حواسك الخمس، علمك، ذاكرتك، ذكرياتك، وموازيتك للأمور. هل تستطيع أن تفعل هذا في أي حلم؟ (قهقهة) أنت إذن في ذلك الحلم المسمى بالحياة؛ وهناك يحق للإنسان أن يراقب ما يحلم به وما لا يحلم به. (قهقهة).

الشاعر: أرحنى وقل لي من تكون!
ذو الوشاح الأسود: إذا كنت ستعبر آداب التعامل كل هذا الاهتمام، وإذا كان الفضول يسيطر عليك، ولديك رغبة لأن تكون مرموقاً في المجتمع، فلا تقدم لك نفسك!

الشاعر: قدم لي نفسك!
ذو الوشاح الأسود: أنا صديق والدك.
الشاعر: وأنا لم أتمكن من معرفة والدي.
ذو الوشاح الأسود: وهو أيضاً لو رأيته، لن يستطيع أن يتعرف علي.

الشاعر: كيف تقول إذن إنك صديق والدي؟
ذو الوشاح الأسود: إنها صداقة قديمة جداً. أقمتها مع والدك، ووالد والدك، ووالد هذا أيضاً، إنها صداقة ممتدة إلى الأب الأول. وبالعنى الأصح، إنها بدأت مع هذا الأول..
الشاعر: وكيف؟

ذو الوشاح الأسود: بل إنني كنت الوحيد الذي عصى أمراً قيل إنه صدر بالسجود لجذع الأكبر. ألم يلقنوك هذا؟
الشاعر: إنك الشيطان!!!

ذو الوشاح الأسود: الشيطان!!! الشيطان الرجيم الذي استعاذوا بالله من شره!!!
الشاعر: لقد تيقنت أنك الشيطان. أنت بنفسك، كنت تشبه شيئاً غير موجود في دنيانا.

ذو الوشاح الأسود: (مقهقهة) إذن ها هو ذا ما تفكرون فيه فيما يتعلق بالكائنات! تنفون وجود الشيء في نفس الوقت الذي تشبهونه فيه بشيء آخر. (قهقهة) ومع أنك لا تستطيعون تشبيه الله بشيء فإنكم تقولون بوجوده.

الشاعر: يا أيها الملعون الذي يتشع بالسواد! أفهم أنك جئت إلي لكي تفسد نظام البناء في روحي. فلتعلم إذن أنك لن تستطيع معي أمراً. لأنك لن تستطيع أن تزحزح حجراً واحداً في بناء الكون الذي في داخلي.

ذو الوشاح الأسود: انظر إلى يدي هاتين!

هأنذا أمدهما نحو وجهك! هل ترى يدي؟
الشاعر: نعم أراهما! ماذا تريد؟
ذو الوشاح الأسود: ماذا تشبهان؟
الشاعر: تشبهان يدي امرأة لم أر مثلهما طوال حياتي.

ذو الوشاح الأسود: هل ترى أنهما جميلتان؟
الشاعر: هل هما جميلتان بالفعل أم لا، لا أدري. لكنهما مفزعتان! جميلتان بقدر ما هما مفزعتان! لا تقترب مني؛ وتكلم حيث أنت!

ذو الوشاح الأسود: إنهما اليدان اللتان أقامتا بناء الكون الذي بداخلك! وإذا أردت الآن استرجاع هندسة هذا الكون، ألن تعطيه لي؟ هل ستدافع أمامي وتستخدم الكذب الذي أقسمته على قلبك إقحاماً لكي أهدئك؟ (قهقهة) هل تعرف ماذا جال بخاطري؟ إنه ذلك الكلب الذي لا يعيد شيئاً إلى صاحبه، حتى قطعة اللحم التي أخذها منه!

الشاعر: أنا لم آخذ منك شيئاً قط. بل إنني أصون نفسي بكل ما فيها لكي أحميها منك.
ذو الوشاح الأسود: إنني أنا صاحب المشاعر والأحاسيس التي حجزتموها في أرواحكم جانباً، ادعيتم أنها حلوة وجميلة!

الشاعر: أنا لا أصدقك! إنك لو حرصت الإنسان ليستقيم في أمر ما، فلن يكون ذلك إلا لكي تدفع به إلى انحرافات هائلة. أنت ذلك المحتال الذي يرد قرشاً واحداً ديناً عليه لكي يسرق ألف قرش.

ذو الوشاح الأسود: شاعر مجنون، لقد أوقعك المتعصبون في حبالهم، كما يوقع معلم مدرسة القرية الأطفال في حباله، وهو يدير التفاحة التي في يده أمام ضوء الشمعة، ليقول إن الأرض تدور، وبذلك يخدعهم. أيها الشاعر الغبي، إنك تفترض أن من جاء ليفرقك بالذهب حتى حلقك عاشق للقرش الموهوم الذي في جيبي؟

الشاعر: جئت لتغرقني بالذهب حتى حلقومي؟!

ذو الوشاح الأسود: بالطبع، جئت لأكون البليسم لفرقك المدقع.

الشاعر: لا أصدقك، أيها الساحر الذي يغلي الكذب في مرجه!

ذو الوشاح الأسود: اطلب كل شيء، اطلب أي شيء. فلقد جئت إليك لكي أرد إليك نصيبك

الذي حرمت منه!

الشاعر: لا تمسك بتلابيبي يا ساحر الظلام!
فأنا لا أطلب شيئاً قط؛ بل إنني لا أحمل في نفسي أي أمنية!

ذو الوشاح الأسود: ألا تتمنى شيئاً قط؟ إن الطمع قد أغرق معدتك في الصدا حتى أعرق أعماقك.. حذار، لا تقل يجب أن أزيل هذا الصدا؛ لأنه سيبتد، ويتشتر مثل الرماد. بل تتبد أنت وتذهب. عليك فقط أن تطلب، وتطلب.. فقد وصلت أنت إلى حالتيك البائسة هذه، لأنك لا تشبع من الطلب. والنجاة لن تكون إلا في الطلب، أو في الفناء والعدم، وتكون مثل بقعة تركتها حشرة على حائط. أنت تريد، وطلبائك لا تنتهي؛ فقد ولدت لتطلب. وسوف تموت بسبب عجزك عن إشباع نفسك بما تريد. وعندما تجد الواحد، تطلب الألف. ما قيمة الشيء الذي ترى أنه يأتي في المقام الأول بالنسبة لك؟ أنت تريد الشيء الذي لن يوجد، تريد المرأة التي لم تولد بعد، الجملة التي لم تعرفها اللغات بعد، الثروة التي لا تستوعبها الخزائن، والنفوذ الذي لم ينله أحد من العظماء من قبل. وكل هذا ليس بشيء قط.. أنت تريد المعرفة، والمصيبة هنا أنك تريد المعرفة.. من أدق ذرة في أبعد مادة، إلى أكثر الحركات غموضاً في أصغر إنسان. تريد معرفة القانون الذي يدير الأشياء والأحداث. إنك لا ترضى بأن تكون مجرد حلقة في سلسلة الإنسان الذي يساق سوقاً ورأسه (مطرق) أمامه. إنك تريد أن تمسك بأول حلقة في هذه السلسلة، وكذلك بأخر حلقة منها، وتوصل كل واحدة بالأخرى. والنتيجة: العدم.. فلن تستطيع عمل شيء. ذلك لأن المحدود الذي لم تستطع استيعابه، سيأخذك تحت جناحه في مواجهة هذا اللامحدود الذي لم يستطع المحدود استيعابه. أنت ترتبك في سيرك في حين أنك تتمنى الطيران. وبدلاً من أن تملّي إرادتك على الملوك، تجد نفسك وقد خضعت لجامعي القمامة. ها هي ذي الثروة التي لا تستوعبها الخزائن، قطعة الخبز الجافة المتروكة منذ ثلاثة أيام في درج الدولاب الصغير.. بل إن الأطفال الذين في الثالثة من عمرهم، يخجلون من الكلمات التي ركبها وسميتها جملة لم تعرفها اللغات.. وذلك الاتساع المصغر في ملاءة هذا السرير المتسخ، يشهد على أن الخيال الذي لم يستطع أن يحتفظ - ولو للحظة واحدة - بالمرأة التي لم تولد بعد على وجه الأرض، يتبخّر أمام المرأة العجوز التي تقطن في الطابق السفلي بجسمها المترهل.

الشاعر: أخرس، لستذهب إلى أعماق الأرض أيها الشيطان! أخرس، عليك لعنة الله، أخرس!
ذو الوشاح الأسود: إنك فنان بلا امرأة، بلا إنتاج، بلا مال، بلا شرف.. فكّر في أن كل إنسان يمتلك كل هذه الأشياء.. وأنت كنت ستزدي كل هذه الأشياء لو كان المال متوافراً لديك. وما دام المال ينقصك، فستظل شهوتك لهذه الأشياء قائمة. إنك تصف هؤلاء الذين يعقدون الموازنة بين رغباتهم ومكاسبهم، إنهم أقزام، وأنت ذلك العملاق خاوي البطن والروح، المحكوم عليه بالغيرة من قوت الأقزام. ماذا تبقى لديك بعد توازنك الخرب الذي استثمرت فيه ما يسمونه العبقريّة وكأنها بديل عن المال؟ فنان بلا امرأة، بلا إنتاج، بلا شرف..

الشاعر: شيطان رجيم! إذا كان الأمر كذلك، فلماذا اخترتني أنا من بين كل هذا العدد من الرجال الأسوياء؟

ذو الوشاح الأسود: (يقترّب ويبعد وكأنه يفرك أشياء بكلتا يديه) لأنه عندما ينتقل توازنك الخرب إلى يدي، سيولد منه أرفع نظام. ولا أحد يعرف هذا السر غيري. قوالب المجتمع لا يمكن أن تلامك. فهم يأخذون كلامك ليضعوه في كتب القراءة في المدارس، كما يأخذون عسل النحل. ومع ذلك فإنهم يودون لو أن يلقوا بشخصك من النافذة كما يطردون النحلة بآبرتها بمنشفة إلى الخارج. أنا فقط أعرف على أي أساس سيكون إعادة بناء روحك الخربة بعد أن يتم تجديدها في «ورشتي». لذا، اخترت أنت من بين الكثيرين من هؤلاء الناس الأسوياء.. سلم نفسك لي فتسيطر على كل شيء. السيطرة: هل تفهم هذه الكلمة، السيطرة.. السيطرة على نفسك، على كل البشر، على كل أنواع المعرفة، على كل شيء محسوس أو غير محسوس.. إذا كنت تريد الجلوس في مكان القلب من المجتمع مثل فص الخاتم، وإذا كنت تريد التألق والبريق، فسلم لي نفسك!

الشاعر: أنا لا أعرف في إطار الموجودات اليومية امتلاكاً أكبر من الحرمان. وكلما زادت قدرتي على تملكها، عمق حرمانني. وكلما عمق حرمانني، أجد لا شيء، وكل شيء. كل شيء يعني الله.. وفي إطار هذا تكون أنت، ويجب أن تنتهي أنت لأصل أنا إلى هدفي. كلما زاد اقترابك من النقاء عدت للتزايد. لذا يجب أن الجأ إلى وضع العراقيل أمامك بعد أن تكون قد وصلت إلى أضعف حال، وأن أعرض صدري لنيرانك بعد أن تتييس من شدة الجفاف! بعد هذا بخطوة

واحدة يكون الخلاص.. وبعد خطوة من هذا اللاسقوط واللااحتراق يعني الثبات والنجاة. أعرف هذا ولكن لا أستطيع أن أخطو هذه الخطوة. ما الذي يعوقني لكي أخطوها؟ انظر، يجب أن أقول لك ماذا يحدث: إنني أعيش داخل برميل بارود! كل ذرة في أمعاء روحي متارة. يعلم الله مدى الألم الذي عانيت، ومن أجله. فأنا لا أريد كل الأشياء التي وعدتني بها رغم احتياجي إليها أكثر من أي إنسان آخر، ومن أي وقت آخر. لكن لا أريد! لا أريد شيئاً قط. أنا راض بما سأصير إليه من عدم تام، أن أكون نصف وجود. قراري الكامل هو تحملي للعذاب؛ مهما كان هذا العذاب؛ وإنني لفي انتظاره، وسانتظر اللحظة التي سيمد فيها يده إليّ.

ذو الوشاح الأسود: أيها الشاعر المسكين، إنني سأبعدك عنه! فقد وجدته صعباً جداً، قاسياً جداً، لكنه بارع جداً، إن عقلك لا بد أن ينفجر مثلما تنفجر قشرة ثمرة الكستناء على النار. لا بد أن ينفجر مهما كانت قوة إدراكه، فليت عقلك قد انفجر! أو ليتني فجرته لك.. لولا أنك كنت أسرعت بوضعه في إطار من نظام يذكر بالبلاء الفني في شطرة بيت في قصيدة شعر.. يا أبه القوافي! إنك غير مستطيع الآن مهما أوتيت من قوة، أن تقتلع من عقلك، ذلك الكذب الذي اختلقته لك ودسسته عليك، ومع ذلك فانظر كيف أني سأبعد بينك وبينه!

الشاعر: إنك إبليس! من هو ذلك الذي ستباعد بينه وبينني؟ من هو، هيا أفصح لي عن اسمه!
ذو الوشاح الأسود: انتظر! سأطفي الشمعة ثم أحدثك.

(نفخة قوية - ظلام دامس)

صوت الشاعر: يا إلهي! اللهم احفظني!
صوت ذي الوشاح الأسود: هيا اصرخ. اصرخ! إن الجدران لجاهزة لرجع صوتك.. لكن لا تندم!

(صوت الكرسي وقد سقط على الأرض، يبدو كالصوت المكتوم، صوت الكتب وهي تسقط على الأرض محدثة ضجيجا)
صوت ذي الوشاح الأسود: أيها الشاعر المسكين، إن الكبريت في جيبك! فلا تتعب نفسك بحثاً عنه! إنني ذاهب، طابت ليلتك. وداعاً وتذكرني!

(ضوء الكبريت حاد - الظلام وقد تبدد - امرأة فوق السرير - لحظة صمت)
الشاعر: من أنت؟ كيف ومتى جئت هنا فوق سريرتي؟

المرأة: تعال، تعال إليّ!

الشاعر: أهو الذي أرسلك أم...؟

المرأة: وماذا يهمك من هذا؟ انظر إليّ، لا يلغني سوى هذه الغلالة السوداء.. ألا تخترق عينك غلاتي هذه؟ (لحظة سكون) هيا أيها الشاب الساذج، اقترّب! لا تقف أمامي هكذا وأنت تلهث! انظر إليّ يدي، كيف تراهما؟.. هل رأيت طوال عمرك يدين كهاتين اليتين؟

الشاعر: (كالمجنون) إنهما يدها!!

المرأة: يدا الخيال الذي يأتي لمواساتك كل ليلة.. تمنع في جسدي.. هأنذا قد لصقت غلاتي بكل تفاصيلي.. ألسنت أنا هي؟ هي، هي، الأنثى، خميرة الأنوثة.. هل ترى الانتظام الرائع الذي يمتد من صدري إلى أسفل مباشرة، ركبتي، ساقاي رسغي، قدمي؟.. هل وجدت تناغما في هذا الخط في أي امرأة في الدنيا؟.. هأنذا قد أحضرت لك تجسيد ذاك الخيال. تعال، إنني أسمح لك أن تمسك يدي!

الشاعر: ستدفنني إلى الجنون دفعا بكذبة هائلة، أرجع إلى شكك الحقيقي أيها الشيطان اللعين!!

المرأة: ما هذا الذي تقوله أيها الشاب الأحق؟.. ألم أقل لك تعال إلى جانبي وأمسك يدي؟.. ففي نفس اللحظة التي تمسك فيها بيدي، سيمتزج سر التلامس بدمك كأنه سم لذيذ.. ستشعر بتطل اللون الأزرق الشديد الزرقة، والبنفسجي الخالص، والأسود الحالك. في دمك القاني! ألن تأتي، إنك لمرهق! أرى أنني أعجبتك كثيرا.. أعجبتك لدرجة أنك لم تستطع التحرك من مكانك. إن قلبك يخفق بسرعة، حتى أنني أسمع خفقانه في جسدي مثل حشرة ديك مذبوح. رعشات القشعريرة تسري في مؤخرة عنقك نحو خصرك. وا أسفا عليك، أيها المراهق الساذج. يالك من مخلوق رقيق!!

الشاعر: اغربي عن فراشي، ارتدي ملابسك، استري نفسك، اذهبي!

المرأة: لا تخف مني.. قلت لك انني المرأة التي تحلم بها.. المرأة التي لم يدرك عقلها أي شيء سوى سحر الأنوثة.. المرأة ناقصة العقل.. المرأة التي تفوقت على الدهاء بسذاجتها المفرطة.. أتعرف كيف تجد القطط الأعشاب الدوائية لها في الحقول عندما تؤلمها رأسها، إنني أجدها الشيء الذي تحتاج إليه أعصابك المريضة، بنفس هذه الكيفية.

الشاعر: يا إلهي! المرأة التي بحثت عنها، تصف لي نفسها بكلماتي!

المرأة: إنني أصف لك نفسي، بلغتي أنا، يعني أن العمل الذي تقوم به أنت دائما، أحاكيه أنا لمرة واحدة فقط.. وإلا فما حاجتي لوصف نفسي؟.. هأنذا، تفضل. (تنثني وتتلوى في الفراش بشكل مثير ومدهش.. لحظة صمت) عينك مصباحان احترقا، وأصبحا رمادا تحت تأثير سريان تيار كهربائي يفوق تحملهما.. انظر إلي، انظر بأحر بصيص نور في عينيك!.. هذه هي حساسية الإنسان؛ يدرك بعينه المغضتين الثاقبتين ما إذا كان ورق السجاجة التي بين أصبعيه، ورقة واحدة أم اثنتين.. لو كان في عينيك مقياس يعجز العلم والحساب عن الوصول إليه، فاعمل على أن تقيس أبعادك.

الشاعر: إنني أختلق!!

المرأة: أتخنتق؛ أشعر بما أفرغته على مركز الاضطراب المفرط الحساسية الذي في عقلك مثل نقطة من الرصاص الذباب؛ إنك تكمل حقيقتي الكبرى في مركز الاضطراب، هذا المركز الشديد الحساسية الذي في عقلك. وهناك، يتحد كل شيء في شعري هذا الذي يشبه الدخان، عينا الطحلبتان، شفتاي المثلثتان الحمراء، وساقاي المتناغمتان تناغما يفوق أخلد الأغنيات، أنا، أنا..

الشاعر: استمري، أيتها الدنيئة المتعالة!! استمري في قبلك!!

المرأة: (قهقهة) أنت ذلك الساذج الذي من السهل أن يصل به خداع الكلمات إلى حالة التذكر لفن.. لقد قلت كل هذا عن عمد وقصد؛ لكي أظهر لك إفلاس الكلمات.. ولم أكن قبيحة لأنني أنا تلك المرأة التي لا يمكن أن تكون قبيحة!! وأنت دليلي على هذا.. يا لخداع الكلمات، إن هذه هي مسألة سحر!! السحر، يلعب في السكون والظلام، ها تعال!!

الشاعر: لن أت!

المرأة: بل ستأتي، إنك قادم، تعال!! (لحظة سكون) أمسك هذه الشمعة بيدك!! (لحظة سكون) إنك أت، ها أنت ذا أكثر رجال الدنيا سذاجة!! ألسنت رجلا مكتمل الرجولة!! تقدم! خطوة أخرى! خطوة أخرى!! (لحظة سكون) ارفع تلك الشمعة إلى أعلى؛ لينتشر الضوء على جسدي.. أسرع.. لا تسمح لجسدي بإثارة مزيد من الظلال!! قف، وسأقول لك شيئا! لماذا تسمرت تماما هكذا في مكانك!! أجب هل

تستطيع بأطراف أصابعك ونار شفتيك أن تراني في الظلمة الدامسة، نورا ساطعا؟

الشاعر: نعم

المرأة: إذا كان الأمر كذلك، فلتطفئ الشمعة!

الشاعر: أخاف أن أفقدك؟ سأتي إليك، هكذا..

المرأة: قف! إذا كنت لا تريد أن أتحوّل في لحظة إلى دخان وأطير، فلتقف لمدة ثانية واحدة! نعم بالضبط هكذا.. والآن أجب: ما رأيك إن صارت كل الكائنات وكل ما تمك في جانب، وأنا في الجانب الآخر؟..

الشاعر: لا أعرف، لا أستطيع أن أتكلّم! دعيني آتي إليك!

المرأة: إذا تقدمت خطوة أخرى، فسوف أنسل وأهرب منك كالطمع عندما ينتهي!

الشاعر: أيتها الساحرة، قللي، مري! هل أت؟ هل أهرب؟ هل أقف؟ هل أجري؟ قللي شيئا!

المرأة: لا تأت، لا تهرب، لا تقف، ولا تجر؛ فقط أجب عن هذا السؤال: الدنيا أم أنا؟..

الشاعر: لا أفهم هذا؛ إنني أدرك وكفى. هذا كل ما في الأمر!!

المرأة: أطفئ الشمعة، أطفئها بسرعة!!

(إطفاء الشمعة - ظلام - صوت خطوات - أنات الفراش - صفي - صوت الأنفاس)

صوت الشاعر: أين أنت؟ لا أستطيع أن أراك، هل أشعل الشمعة؟

صوت المرأة: إياك! وإلا فقدتني إلى الأبد!

صوت الشاعر: يدي تضيق في كل موضع ألمسه، إنني ساموت!

صوت المرأة: اصبر! ستشعر بماهية اللذة التي تختلف عما هو مفهوم في هذه الدنيا.. ألم تقبل امرأة أبدا في الحلم؟ ألم تسقط في بحر التقبيل قط أثناء حلمك؟

صوت الشاعر: أنا على وشك الجنون؛ قللي، أين أنت؟

صوت المرأة: بإجابة واحدة..

صوت الشاعر: ما هي؟

صوت المرأة: العدم.. داخل كل شيء فراغ.. وهم.. وهم.. عمق السموات، ركن الزمان، مركز الدائرة.. وهم وهم..

صوت الشاعر: وهل أنت أيضا وهم؟.. أقول لك تعال!!

صوت المرأة: كل شيء عداي وهم.. قل هذا لي..

صوت الشاعر: كل شيء عداك وهم..
صوت المرأة: قَرَّبَ فمك إلى شفتي! نعم!.. هل
تشعر بشفتي والنار الصادرة منهما؟
صوت الشاعر: نعم أشعر!
صوت المرأة: قل، أيها الأبله، حقيقتي أنا، أم
وهمه هو؟..

صوت الشاعر: وَهْمُكَ أنت.. وهم كل شيء..
حقيقته هو.. حقيقته هو فقط..
صوت المرأة: (قهقهة جوفاء) إنك تُعَصِّرُ
كتفي، احذر، ستطحن أسنانك!..

(قهقهة - صرير السرير الحديدي -
الكبريت مشتعل - الفراش مبعثر تماما وخال
تماما. في طرف الحجرة خيال أحذب -
الشاعر منحني يشعل الشمعة التي على
الأرض، وعندما يرفع رأسه يرى خيالا له
لحية مدببة الطرف، وذقن حادة، وأنف
مدبب، ورأس مدبب، وظاهر محدودب، وفوقه
وشاح أسود، وفي يده حقيبة سوداء).

الشاعر: أمرك يا سيادة السفير؟..
الأحذب: إني مُكَلَّفٌ بعقد صفقة معك!
الشاعر: مثل ماذا يا سيدي؟
الأحذب: بصراحة تامة، وبدون مقدمات،
وبدون تحايل، وبدون مزاح، مساومة صريحة.
الشاعر: وكيف؟..

الأحذب: أنت يا أكثر أهل المدينة إفلاسا، أي
تضحية تلك التي تراها تعادل ثمن شراء المدينة
كلها؟..

الشاعر: (الشمعة في يده - يقف على
قدميه - ويرتب بيده الأخرى شعره المشعث)
هيا نتحدث بصراحة أكثر!.. تَقْصُصُ الآن ما
شئت من الشخصيات، وتقول بالقلب الذي
تريده، فلن تستطيع خداعي!.. فأنت هو أنت!
أليس كذلك! طريد الله؟.. تظهر لي الآن في
صورة يهودي أحذب!.. ماذا يعني وضعك هذا؟..
الأحذب: افترض ما شاء لك الافتراض! فعقلي
لا يدرك الأحاديث الطوال.. الكلمة عندي أداة
تنفيذ لعمل بسير.. وهي عندي ليست أداة لرسم
لوحات تفتقد المعنى والمنطق والنسبية مثلما
يفعل الشعراء.. ولا جدوى من التفكير فيمن
أكون أو ماذا أكون.. فقد جئت إلى هنا لعقد
صفقة صريحة معك! سأطلب منك شيئا
وسأدفع ثمنه.. عليك فقط أن تقول لي هل تقبل
أو لا تقبل!..

الشاعر: (يمد الشمعة التي في يده صوب
وجه الأحذب) من أين أتيت بهذه الرقعة
المضحكة؟.. ألم تكن حتى هذه اللحظة نتكلم

بالشكل المعتاد؟..

الأحذب: لم تَرُدْ عليّ بعد؟.. أريد شيئا وأدفع
مقابله من النقود! (يدخل يديه فجأة في جيبه،
ويخرجهما وقد امتلأتا بالماس ويمدهما أمام
عيني الشاعر) تقض! ملء الكفين ماس! انظر،
كم هو بَرَّاق ولا مع!.. في داخل كل واحدة منها
آلاف من براعات النار تحترق..

الشاعر: (وعيناه على يدي الأحذب) إنهما
يдах! يدا الشيطان، ويذا المرأة! يَغَيِّرُ كل جزء فيه
ولا يغير يديه!..

الأحذب: لا تنظر إلى يدي! إنهما مستعارتان.
يदाي الأصليتان مقطوعتان من المعصم.. انظر
إلى الماس!.. الماس!..

الشاعر: ماذا تريد مني مقابل هذا الماس، وقد
وصفتني بقولك إنني أكبر مفلس في العالم؟
الأحذب: روحك!!!

الشاعر: لو أنني عرضت روحي للبيع في
سوق الأشياء المستعملة فلن أجد من يشتريها،
لن أجد من يدفع فيها نقودا تكفي احتياجات
طفل غريب!

الأحذب: أما بالنسبة لي، فأنا مستعد لأن
أدفع فيها نقودا يمكن أن تشتري الدنيا كلها!
الشاعر: لماذا؟

الأحذب: (يدخل الماس إلى جيبه) إنه سر
المهنة! إنها مسألة لا تخصك.. أتقبل أم لا؟
الشاعر: روحي، روحي أنا، أهى قميص يجب
أن أخلعه لكي أعطيه لك؟

الأحذب: إن خلعتها أسهل من خلع قميصك
وإعطائي.. ل.. إنني أريد الإيمان الذي يحتويك
مثلا يحتويك هذا القميص!.. وبأي ثمن تراه.

الشاعر: وهل هناك ما يعادله؟
الأحذب: هناك بالطبع ما يعادله. إن كيلة
القمح مثلا لها ثمن، وهذا الثمن المقابل هو
السبب الوحيد لاستمرار هذيانك أربعا وعشرين
ساعة في اليوم. وعلى هذا أقلن يكون لهذيانك
هذا ثمن، يعني: مقابل؟.. المال هو المقياس
الحقيقي والوحيد للإنسان في الدنيا. إنه المقياس
الذي يعتمد عليه الناس، ويروونه، ويسمعونه،
ويشمنونه، ويتذوقونه، ويحسونه. نعم، فمهما
كانت قيمة ما تنطق به روحك، وما تحس به،
فإنها تتركز في المال، وهو المقاس الرائع الذي
يضع كل شيء من هذا في موضعه، بل وهو
الذي يجسد المقياس الذي ما بعده مقياس..

الشاعر: (الشمعة في يده - يزيح بيده
الأخرى إلى السوراء شعره المشعث على
الجانبين) عليك اللعنة! يا إبليس..

الأحذب: (وهو يلتوي التواء ثعبانية)
توقف، يجب أن أخاطبك بلغتك الحمقاء! المال:
النقود، ولكنها ليست أوراق النقدية تلك التي
تعرفها والتي أكل عليها الدهر وشرب. وليست
أيضا قطع المعدن ذات البريق الوهاج وهج
الشمس ولها استدارة القمر.. فكل هذا لواحق
لها.. لكنه المال.. النقود، إنها فوق كل هذا، فيها
علاقة خافية ومجردة. وهي مقياس وحيد.. إنها
ذلك الوجود المطلق الذي بحثت عنه عبثا!..
الشاعر: فليعنك الله!

الأحذب: ومن هو ذاك أيضا؟ أنا لا أعرفه!
لنرجع نحن إلى مسألة النقود! تلك القطعة
الورقية التي اختلط عليها توقيع الوزير، وقبلة
المتلقي، ووحل حفار القبور، ومساحيق وجه
البغي، ومكواة الصراف، والتواء الجاسوس،
ونفس مقيم الصلاة، وعرق الأجير، ورمز الأمة،
ولوث المتسول، ودم الشهيد، وبصاق السكر،
وخدش ظفر القاتل، وصمغ حاجب المحكمة،
وتلك النقود عليك أن تترجم للمستبد سطوته،
وللثائر وسيلته، وللأب رحمته، وللطفل طاعته،
وللحاكم مهابته، وللكاذب شهادته، وللغدائي
تضحيته، وللمرابي نفوره، وللعالم حكمته،
وللمريض علته، وللرئيس هيئته، وللتعيس
انطواءه، فصدقة الصديق، وخيانة الخائن،
وجنة الزاهد، وذلة المحتاج، وقوة الجيش،
وشهوة الشيخ الفاني، وطلاقة لسان نائب
البرلمان، ووصية الميت، وأمانة الوطن، وسفالة
الكلام، وكفارة الذنب، وحقيقة الدنيا.. إنها
النقود التي تحتوي كل هذا.. ها هي ذي النقود
التي تملأ فراغ كل بناء مادي ومعنوي، كل بناء،
وهي الجنى الذي يتصاعد كالدخان من كل منفذ،
هي الجنى الكبير..

الشاعر: أأنت؟ أأنت رجل الأعمال الصريح؟
الأحذب: يكفي الآن، يكفي هذا القدر من
المعاناة! انظر، كيف أن كل مكونات المادية
والمعنوية تتبدد أمام حقيقة المال، مثل الفقاعة؟
كفى، إنه نهم خبز الوهم الذي ملأت به بطونك
الخاوية مع الأسف! والأكثر من هذا، ما حدث
هذا الصباح، ذلك الأحمق الذي طلبت منه أن
يُقرضك عشر ليرات، بعد أن ظل يعاني من
سماع خطبك الحماسية عن ثورة المجتمع والفن،
ألم يضربك بالخنجر الذي في ابتسامته؟ وقبل
أربعة أيام جعلك مديرك في الإدارة الخاصة، ذو
الوجه العيوس، تنتظره بضع ساعات أمام
درازين السلم الحديدي في الممر، وأنت ترجوه
لكي يعيرك انتباهه للحظة. ترى بماذا سيصدر

أمر سيادة الوزير الذي التفت إليك بعينيه. وأشار إلى يدك التي ترجوه، وهو غير مطمئن لأن تمتد يدك بالأذى وهي تتحسس مع كل كلمة رجاء. فوظيفة المدرس صاحب المثل العليا راتبها ثلاثمائة وخمسون ليرة في الشهر، تلك الوظيفة التي طلبتها من هذا الذي فهم أن الوزارة جعلت لمن تركوا الفقر والزهد، فلو أنك وجدت وظيفة جامع قمامة براتب ثلاثمائة وخمسة وخمسين ليرة في الشهر، وكنت أنت الذي تصدق، هل كنت تلج في الرجاء هكذا؟

الشاعر: (وهو يكاد يبكي) كفكافا!

الأحدب: الأصل أنه يكفك ما تقترفه أنت بنفسك من كفرا! دع حياة الساعات الأربع والعشرين لكبار السن المساكين، لقد كنت ضحية وهم غد لن يشرق أبدا فيما وراء الزمن، ألست أنت - في كل مرة - تقع أسير الحقيقة المؤلمة تلك، في الشمس وإشراقها كل صباح؟ ألم تألف تبديد رأس المال الذي لا ينفد، وأن ترمي في كل مرة بملايم الرحمة والاستهزاء التي تمتلكها في قبضتك، ترمي بها إلى الأوحال، كما لو كانت القيامة ستقوم في اليوم التالي، بينما أنت متعلق بشفق يوم لن يأتي؟ كيف ستنزع أيها الغاني، تلك الحلقة التي علقها في رقبتك بعلمهم البائس أولئك الذين يعرفون أنه لن يأتي صباح في المستقبل اللامتناهي. وأن الشمس ستشرق بعد يوم فحسب؟.. توقف، وتعال، فقد أحضرت إليك القيمة التي لن تبلغها الأعداد المتنامية، المشهد الذي لن تستطيع آفاق العقل المتوالية أن تبلغه، والحقيقة التي لن تستطيع الكتب المدرسية المكسدة أن تكملها (يضع يديه في جيبه ثم يخرجهما وقد امتلأتا بالماس ويمدماهما إليه) خذ، رأس المال الذي لا ينفد، خذ!

الشاعر: (وقد رفع الشمعدان إلى أعلى) القيمة التي لن تستطيع الأعداد المتنامية بلوغها، والمشهد الذي لن تستطيع الآفاق العقلية المتوالية بلوغه، والحقيقة التي لن تستطيع الكتب المكسدة أن تكملها، هي الله، أقول: الله!!

الأحدب: (يتراجع فجأة خطوة إلى الخلف) طفل، إنك طفل، الطفل الذي يداعب ظله.. حسبك أن تعطيني ذلك الذي نطق باسمه، وذلك الإيمان الذي يملأ هذا الصندوق الممتلئ كذبا، وخذ في مقابله هذا الماس كله!

الشاعر: (وهو يضرب الشمعدان الذي في يده بصورة الأحدب) خذ!! (تطير الشمعة في الهواء بسرعة هائلة - فلام داس - الماس يقع متدققا على الأرض)

صوت الشاعر: أيها الشيطان، ابتعد عني!.. إنك ترفع حصارا حول كل نقطة في ضعفي الذي عصرته!

صوت الشيطان: (قهقهة) ساذج!

صوت الشاعر: (من خلال نشيجه) إنني معلق به، لن تنزعني منه!.. تعرف بأي مقابل وجده!.. لقد حل الإيمان به روي بعد أن جرعتني آلاما تفوق الموت والجنون. إن جهدي يضيق هباء، فلا المرأة، ولا المال والجاه، ولا إكسیر الحياة يمكن أن تخبرني عن مكان واحد خارج سلطانه؟

صوت الشيطان: (قهقهة) متعصب!

صوت الشاعر: سجان اللعنات. تعال لنرى، إن كان الأمر كذلك أم لا؟! أعرض علي طلبك مرة أخرى، وحينئذ سيكون من الواجب علي تجميد رأسك بالمخ.

صوت الشيطان: إذا كان الأمر كذلك، فلتشعل الشمعة إذن أيها الجصور الغاضب. اشعلها ولتر، وانظر من سيكون لك الشرف بمقابلته!

صوت الشاعر: أليس في استطاعتك أن تظهر في الظلام؟

صوت مبجوح: أليس في استطاعتك أن ترى في الظلام!.. قف، على الأقل يجب أن أشعل الشمعة..

(وقع أقدام ضوضاء الأشياء.. صوت صندوق الكبريت المفتوح. ضوء. هيكل عظمي على رأسه تاج، وملفوف جيدا بمعطف أبيض. الهيكل العظمي يشعل الشمعدان)

الشاعر: إنهم يلعبون نفس اللعبة في نفس الفرق المسرحية البدائية.

الهيكل العظمي: مع فارق واحد، هو أن القبر في ديكوراتهم محكم الرسم للدرجة التي لا يسمح فيها بوجود صورة ذبابة.

الشاعر: وأنت ماذا كنت؟

الهيكل العظمي: (بابتسامة سخرية مخيفة) تشهد عظامي المبتسمة على أن اسمي هو: الوهم واليقين!.. لكن بمجرد أن أنزع معطفي بسرعة من على رأسي، أنحول إلى شيء مختلف تماما!

الشاعر: وما هو ذلك الشيء؟

الهيكل العظمي: إنه السلطة والجاه.

الشاعر: تفضل، إنني أنصت إلى خطبتك

العصماء!

الهيكل العظمي: لقد عملت لك فيما مضى ثلاث لعبات. وأثناء لعبك بإحداها حملت كل كتيك وألقيت بها في النار ثم أخرجتها من المدفأة بيدك المحترقتين.. أتتذكر هذا؟

الشاعر: نعم!

الهيكل العظمي: وكانت تلك لعبة اللغة!

الشاعر: ثم؟

الهيكل العظمي: ثم سلمت إليك اللعبة الثانية. وعندما دفعت لولب هذه اللعبة، جريت إلى النافذة بعينيك التي اندفع لولبها ومددت يدك، وقمت لتطفئ مصباح منزل الصياد الذي يقطن في الشاطئ المقابل!

الشاعر: صحيح؟

الهيكل العظمي: وكانت هذه لعبة المكان!

الشاعر: وبعد.. ماذا بعد؟

الهيكل العظمي: ثم في النهاية أعطيتك أبرع الألعاب فَنًا. هذه اللعبة التي عضت أصابعك تلك العضة التي ظننت معها، أنه ليس من سبيل آخر في طريق الخلود سوى إطلاق الصرخة التي ترتفع كل لحظة إلى مالا نهاية.

الشاعر: يا إلهي! يا إلهي!

الهيكل العظمي: إنها لعبة الزمان.

الشاعر: (وقد مدّ يديه في اتجاه الهيكل العظمي) الشيطان، الشيطان!! أضغط علي كما تشاء من باب ضعف البشر الطبيعي.. أضغط كما تشاء، لكن ارحمني في جانبي هذا!.. أيها الشيطان إنني أرجوك ألا تلمس جانبي هذا.. إنني أرى يدك!.. إنك تملك أدق يد في الدنيا رغم أصابعك العظمية! ألم تر قط أيدي الجنون؟.. إن الكلمات تعجز عن وصف دقتها. لقد حلت هذه الأيدي ألياف مخي واحدا واحدا، وفككتها ثم ألصقتها واحدا واحدا بعد أن بصقت عليها من دمي.. يدك!! حذار!! لا تجعلها تلمس هذه النقطة في.. مرني بما تشاء، إلا هذا العذاب.

الهيكل العظمي: (وهو يبحث بالشمعة التي في يده، عن التعبيرات التي في وجه الشاعر) ماذا رأيت وأنت تلعب بلعبة اللغة؟.. مهما كان في الدنيا من كلمات، فكلها معدودة، ونسبها كلها تخضع للمقاييس.. هذا السر الذي اجتهدت لحله بحماسة في إحدى كتاباتك، ألم يتضح لك من هذان أفطع المجانين، وصولا إلى أعقد النظريات العلمية، أن خروج الكلمات عن كل

تركيبات اللغة، المعروفة مسبقاً، والموجودة من قبل، والمحدودة، مسألة غير ممكنة؟! ألم تدرك بعد وأنت مشدود أن كل شيء بدءاً من هذيان راع قبل الآن بعشرة آلاف سنة، وصولاً إلى طريقة التفكير المطروحة على الورق لأي مهندس بعد ذلك بعشرة آلاف سنة، أنها كلها تقع داخل هذه الدائرة؟! هذه الدائرة المسحورة؟! هذه الحقيقة التي غرستها في حفرة دماغك مثل بلية مسمومة. هذه الحقيقة فقط هي الجدار الذي يحيط بك ولا يمكن تخطيه. الحدود التي يستحيل اختراقها، وأنت مكلف بإثبات عدم الذي وراءها. هب أنك وجدت الطريق إلى أفق مفتوح بإطراد إلى خلود سقط حجابك.. إلى بلاد الحقيقة المطلقة التي وراءه.. ترى كيف تكون، كيف؟! كيف تنقلب المذنة فجأة إلى النقيض لتصبح بئراً؟

الشاعر: إنني أعرفه واحداً واحداً. إلهي واحد. **الهيكل العظمي:** لفتك بعد ذلك وهم المكان. لماذا يصبح الرجل الذي يتقدم مسافة عشرة أمتار، صغيراً بحجم إبهامك؟ هل المسافة هي التي جعلته صغيراً، أم مرض النسبة الذي في دماغك العنكبوتي؟ مع أنه إذا اتبعنا مقياس حقيقة لا تعرف أصل الأشخاص، نجد أنفسنا أمام سؤال: ترى هل يكون كل شخص وكل شيء تبعاً لذاته، أم تبعاً لموقع كل واحد من الآخر؟! أي من هذين المقياسين هو الصحيح؟! الصحيح أن الخوف الذي أوجد وهم المكان والمسافة، يكون عادة أكثر رغبة من سم العقرب المرعب.. مديك.. مذهباً. انبش بأظفارك في رمال مجمرة السموات قبيل الصباح وابحث عن شرارة نجم لتشعل سيجارتك.. وأديت الأمر بحذر، وقفزت من هذا الهزال إلى جسم نادر.. قوي.. كامل.

الشاعر: ماذا تريد أن تنزل بي بعد الألم والسحر والموت والجنون؟ أخرس ولا تقل. إنك يجب أن تقول كلمة أخرى

الهيكل العظمي: ها هي تلك الكلمة! لقد طرقت رأسك بمطرقة الزمان. رأسك الذي عبر إلى ما وراء الموت والجنون.. طرقتها. ماذا كانت آخر كلمة قلتها؟! طرقتها، أليس كذلك؟! أين الزمن الذي احتوانا أثناء نطق هذه الكلمة؟! لقد طار ومضى، وسقط ليس كذلك؟

الشاعر: (يستدير كالصاعقة، ويمسك الكرسي الموجود في أحد الأركان ويرفعه إلى أعلى بكلتا يديه) اسكت إذا كنت لا تريد أن أسحق عظامك.. أخرس!

الهيكل العظمي: (في أعماق سكون وحزن) ها هو ذا الزمان الذي رفعت فيه هذا الكرسي وقلت فيه أخرس. لقد طار هو الآخر. مضى، انتهى، سقط. أيها الشاعر، دعك من نباح الكلاب هذا، وتعال بجانبني!.. اسند رأسك الذي أحرقه النار، على دماغى البارد كالتلج، ولنفكر معا ونتشاور في أمر الزمن!.. إنه بشر البستان الذي لا قرار له والذي غمست فيه أقدامك الفارغة حتى وصلت إلى قراره، ثم سحبت أقدامك من قراره، فإذا هي فارغة!.. لنفكر في أمر الزمن، الزمن!..

الشاعر: (ينزل الكرسي إلى الأرض ببطء، بينما الدموع تنهمر من عينيه) ارحمني. أو اربط عيني بمندبل الموت. أو غطني بلحاف الجنون! لكن لا تلق بي في هذا الجب!

الهيكل العظمي: فكر.. الزمن الذي عجز عن أن يعلق بضربة حربة واحدة لا حدود لسرعتها، فيما بين طرف له برجل غير ممتناه في دقته وحذته بصورة لا يمكن أن ينتجها أي خيال، وبين المائدة.. هذا الزمن سرعان ما أطاح بالبرجل على الأرض. وطار الزمن، ومضى وسقط. كلا، كلا، كلا. إنه ليس ضمن أي مقياس من مقياس القرن، والشهر، والأسبوع، واليوم، والساعة، والدقيقة، والثانية... والثالثة.. يمكن أن يكون هناك هواء مكعب ومتجمد داخل ناقوس زجاجي.. يمكن أن يكون هناك شعر الميت فوق رأس مومياء مَحْنطة قبل ثلاثة آلاف سنة؛ لكن لا يمكن أن يكون هناك ذلك الزمن الذي كان قبل ثانية واحدة.. خطأ مرسوماً بنقاط وهم عدم فقط. فوق هذا الخط، الإنسان، والمجتمع، والحرب، والمبدأ، والفكر، والإيمان، وتحت أكثر ازدهاماً من فوقه، وفوقه تراب أكثر حركة مما تحته.

(لحظة سكون. الشاعر وقد أحنى رأسه إلى الأمام، يهتز وهو يبكي بنشيج)

الهيكل العظمي: انفجرت عينك وسقط أحد إنساني عينيك فوق ورق النشاف، وانتشر مثل نقطة الحبر. وبحث عن مكان في الدنيا يشبه الشرفة لتلقي بنفسك إلى الفراغ، وتنهار الذروة والسفح بسرعة الضوء.. ووقفت. حسن، حسن. هل أخرجتكم «من، وماذا، وكيف؟» من هذا عدم، ومن الشتات، إلى الوجود الكامل، واليقين، والوحدانية؟

الشاعر: الله!! كل شيء على هذا النسق أصبح عدماً، وبقي هو وحده!

الهيكل العظمي: (يمد كلتا يديه بأصابعهما

المتفرقة، ناحية الشاعر) لا، لا، لا أريد هذه الكلمة!.. لقد جئت لك الآن بأفطع أفكار الوهم واليقين. في جيب هذا المعطف، داخل زجاجة.. إذا لم ترغب في أن أفتح غطاء هذه الزجاجة، فلا تستخدم هذه الكلمة مرة أخرى، لا تستخدمها مرة أخرى!.. عندئذ أتفاوض معك على مائدة الصلح الفخمة.. تأخذ الزجاجة الثانية التي في جيب معطفي!.. إنها أكسير السلطة والجاه. **الشاعر:** أُنْتَظَرُ الخلاص من يدك أنت؟! ها هو ذا الزمن الطائر، الماضي، الساقط، إنه هو.

الهيكل العظمي: تخيل: رجلاً له قلب وعقل أشد صلابة وأكثر بريقاً من الماس. تخيل: الزمن والمكان وكل شيء مربوط بحلقة في رقبته، ومربوط بوتر واحد! تخيل: تأسيس سطوتك وذاتك، والوصول إلى درجة تسلية خالدة.. وعند الموت، تخيل الوصول إلى عدم، لم يسبق مناقشة عدم فيه. إلى تلك الراحة الكبرى. عدم الخوف من الموت أبداً، يعني عدم الموت أبداً. لكن تأسيس الجاه والسلطة وأنت على قيد الحياة. وتصور إعطاء نفقة شعر إلى ملايين البشر، والتفرج على أحجار القمر من خلال عيون برونزية لتمثال في أكبر ميادين المدينة. في منتصف الليل بينما المدينة نائمة..

الشاعر: لا، لا! **الهيكل العظمي:** (وهو يمد الشمعدان الذي في يده) خذ تلك الشمعة. **الشاعر:** (متوجساً وخائفاً) ماذا يحدث إذا أخذتها؟

الهيكل العظمي: لا شيء!.. سأريك شيئاً! (ياخذ الشاعر الشمعدان بطريقة خائفة - يخرج الهيكل العظمي من جيب معطفه زجاجتين صغيرتين).

الهيكل العظمي: (وهو يشير إلى إحدى الزجاجتين) انظر، ها هو ذا أكسير السلطة والجاه. تذوقه مرة واحدة، تذوقه وامتلأ الدنيا! لم يبق في الدنيا عجزت عن أن أدنيقه من هذا الأكسير على طول الخيط المفكوك من بكرة الزمان، أعني: الرجال الذين يصبحون عظماء بعد ذلك.

الشاعر: لا أريد. **الهيكل العظمي:** ألا تريد؟!.. هل أنت غريب عن الانفعال بروعة النظام الذي يحسه كل الناس بما فيهم أطفال الحي الصغار أثناء مرور المجموعات العسكرية في الشارع، وقد تقدمها عازفو البوق والطبل، يعزفون أنغاماً موسيقية مستوحاة من البرق، في نظام رتيب!.. ألا تريد

أن يصبح هذا النظام منشورا تحت أقدام أنانيتك الهائلة، على امتداد وطن بأكمله، مثل بساط من الحرير؟.. سأجعل هذا المجتمع الضخم، كتلة من الخشب، وسألقي بها بين ذراعيك، وستنحتها كيفما تشاء؛ ستنحتها وتحول إلى نشارة أخشاب بالاكتشافات المستمرة التي يقوم بها عقلك المتجلط. عقلت هذا مجرة الجنون والطمع. وتثير ضحك المضطربين المتسكعين في الحانات؛ ألا تريد هذا؟.. أجب، ألا تريد أن تتحول جثة المجتمع العارية تماما، والتي سأودعها ورشة تجديد الإرادة وتخرج منها عذراء مخدرة بالأفيون؟.. ألا تريد فتح جمعتها مثل طبيب مجنون لكنه منقذ... عصر معها مثل الخميرة بيد من حرير. فك أعصابها من المواضع التي تريدها، ثم ربطها من المواضع التي تريدها، وتستبدل أنت بأعضائها معادن جديدة تماما، وبأوتارها عصبيا جديدا تماما، وينسجها نسجا جديدا تماما. وتقطير أصل الشمس اللامعة وعلى طرف قلم متناه في دقة كالشعرة، زيت الحياة، على دقات الساعة التي في قلبها الذهبي... و.. والقول لها.. «ها، انهضي!»، «انهضي واستوي، تمطي، افركي عينيك، تنفسي، دوسي بقدميك الأرض المستوية استواء خصلات شعرك، وكوني عاشقة لي!» ألا تريد هذا؟.. كوني عاشقة لي وافردي شعرك الذهبي في طريقي مثل البساط لامشي فوقه.. أما زلت لا تريد؟

الشاعر: يا مهرج.. يا بهلوان لعبة الفناء.. يا ساحر العدم.. لا أريد.. لا أريد، أستعيذ بالله منك، أستعيذ بالله.. الله.. الله..

الهيكل العظمي: نفس الكلمة مرة أخرى؟!!!

(يدخل إلى جيبه إحدى الزجاجتين اللتين في يديه، ويمد يده بالأخرى) إذا كان الأمر كذلك، فخذ الزجاجة الثانية!.. (يضع يده على غطاء الزجاجة) في نفس اللحظة التي أرفع فيها هذا الغطاء، فإن ما بداخل الزجاجة سيهاجم العثة التي في عقلك، وكل وهم الدنيا، عثة اليقين والشك، وسوف تحترق أنت وتنتهي، وتهدم ذرة تلو ذرة، وستبقى منك فقط ذرتك الوحيدة. وعندما يتجمع ضوء العدسات المكبرة، ويتركز في نقطة واحدة، فإن هذه الذرة ستختص بالصراخ والعواء والإحساس بالآلم (وبحركة) تقربه من الشاعر أكثر، ممسكا بالزجاجة من أسفل بإحدى يديه، وغطائها باليد الأخرى) أفصح بسرعة، ساعد! واحدا، اثنين ثلاثة، واحد: نعم أم لا؟

الشاعر: (وهو خائف) على أي شيء أقول

نعم أم لا؟

الهيكل العظمي: على تسليم روحك لي..
اثنان: نعم أم لا؟..

الشاعر: لحظة.. هل تمسك الشمعدان للحظة؟
الهيكل العظمي: هاته!

(يمد الشاعر الشمعدان الذي في يده إلى الهيكل العظمي، يتناول الهيكل العظمي بيده اليسرى بينما الزجاجة في يده اليمنى يجري الشاعر في قفزة واحدة إلى جوار الدولاب الصغير. يفتح الدرج بسرعة خاطفة. ويدخل الدرج يلف شيئا مخيا ويغطيه)

الهيكل العظمي: (استعت حفرتا عينيه أكثر من ذي قبل، وبصيحة مخيفة يطلقها على الشاعر) مجنون!! دعك من هذا أو اتركه جانبا. (يلف الشاعر الشيء المخبأ الذي أخرجه من الدرج لفة أخرى، وبينما يهم بالتحرك كما لو كان يريد العودة إلى الهيكل العظمي، ومعه ذلك الشيء، إذ بالهيكل العظمي قد نفخ الشمعة نفخة حادة، وأطفأها)

صوت الشاعر: (منطلقا من قلب الظلام) أيها الشيطان، خذ! يا إلهي، ماذا يحدث لي؟ (لحظة سکون)

صوت الشاعر: يا إلهي، إني محتاج إليك. لا تتركني!

صوت الشيطان: (من بعيد وبنبهة وقورة) أنت محتاج إليه.. ما!!

صوت الشاعر: هو فقط حاجتي.. إنه موجود في أفق ومنتهى وغاية وقلب مخاوفي، وأطماعي، وقلقي، وشكوكي.. (لحظة سکون. صوت وقع أقدام ثقيلة)

صوت الشيطان: (أكثر قربا من ذي قبل) هو، دائما هو.. كف صوتك.

صوت الشاعر: مجتمعي هو هندسة الدوائر المرسومة في كل نقطة حول مركزه... نظامي هو مقياس كفيته التي لا تعد ولا ترى بالعين.

صوت الشيطان: (وقد أصبح قريبا منه تماما) لقد كسرت يداي، وكأنا ستقدما لك كل ما تريد.

صوت الشاعر: إنك لا تستطيع أن تعطيني شيئا أبدا.. لقد وجدت الله من شدة جوعي وليس من شعبي تحت كل إناء زيتته لي، يوجد العدم، الكم، الزيد، العدد، البريق، الحدود.. وأنا أريد غير الحدود.. إني لا أشبع.. إني جائع..

محروم من أجله.. ولأنني محروم، فإنني أملك كل شيء.. أريد الخلود.. سعادتي في الانشودة الواحدة، في النغمة الفريدة، في الصراع الفريد، وأنت لا تستطيع أن تقدم لي ما أريد. أنت سلطان عجزك؛ عجزك الذي أعطاك كل عزاء السلطة والجاء، وليس قوتك.. أنت لعبة.. وأنا أحتاج المحرك الذي يفرز شريط الزمن، وليست اللعبة هي ما أحتاج.

صوت الشيطان: (بمنتهى الوقار، وبنبهة تتباعد باستقار) بشرط أن تترك هذا الذي في يدك، وانظر ماذا سأقول.
صوت الشاعر: لن أتركه.

صوت الشيطان: (من بعد متناه، وهو يتلأش) لقد كسرت يداي به.. إنه ميراث الثروة المقلسة التي اختزنتها جدتك الميتة ووضعتها تحت وسادتها.. ألا تشعر بالخجل وأنت تؤمن بهذه الأوراق.

(لحظة سکون. عود الثقاب الذي أشعله الشاعر. ومضة بريق ضوء للحظة.. يبدو ذو الوشاح الأسود من ظهره أمام الباب بيديه المكسورتين المتدليتين من المعصمين، وقد التوتا ناحية اليمين والشمال. يخرج ذو الوشاح الأسود من الباب)

الشاعر: (في يده اليمنى كتاب ملفوف داخل منديل، وفي يده اليسرى عود الثقاب على وشك الانتهاء) يا أيها الميراث الذي وجدته تحت وسادة جدتي الميتة!! إنك لن تنفد.. ولن تنتهي!
(ينتهي عود الثقاب. ظلام. نحيب عميق).

(ستار)

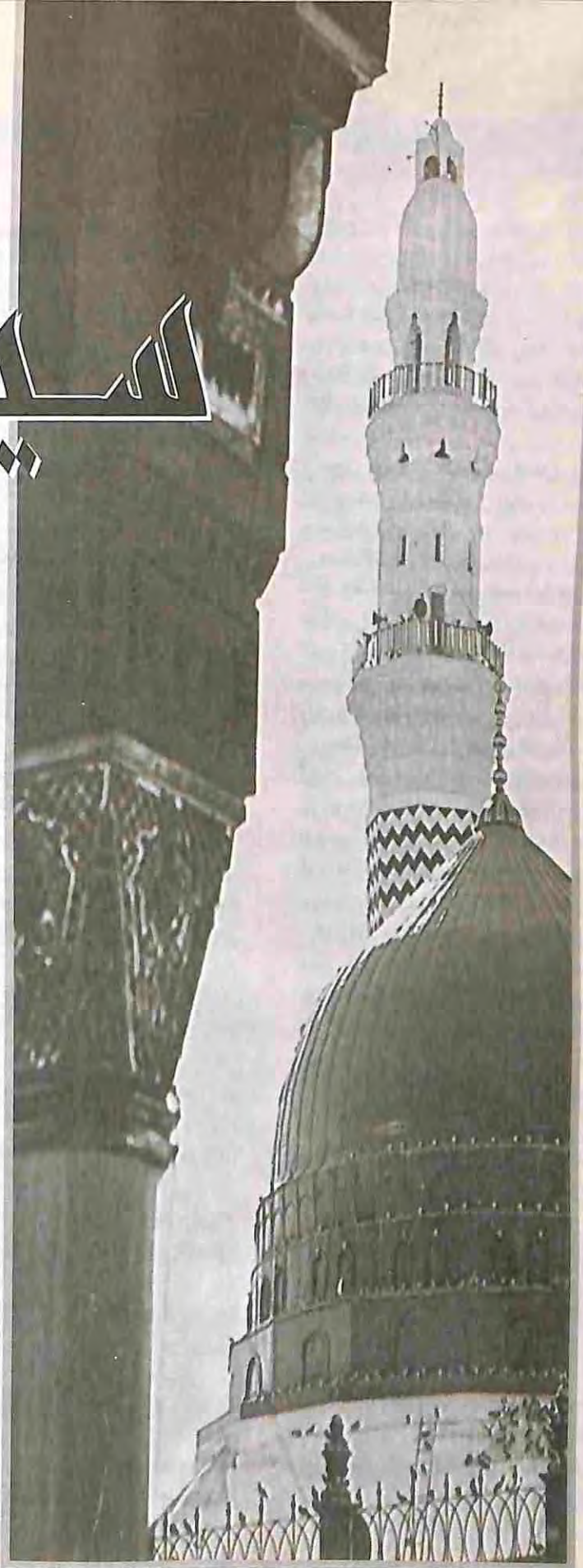
* رائد الأدب الإسلامي المعاصر في تركيا.

* يشير الكاتب هنا إلى القرآن الكريم.

■ د. ماجدة مخلوف: كاتبة ومترجمة مصرية، حصلت على الدكتوراه من جامعة عين شمس بالقاهرة. لها ترجمات من اللغة التركية إلى العربية، منها رواية «ملكة النحل» للاديب الأستاذ علي نار، رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في تركيا.

سيد الماء *

”



لا يرفع المرء مثل الوعي والظفر
وإن تمكنت من جنح الهدى فطر
محمد سيد الكونين عبّرها
لا تتركوا الصهوة العلياء للحفر
ونحن نعمه في عتم وفي ألق
نعدو إلى سلب الدنيا على بطر
حتى تفلت حبل الله من يدنا
ودمرتنا شظايا.. شهوة البشر
يا للشوامخ أرخصنا مناعتها
ومن ثرى أحد، ملنا إلى سقر
يا أيها الجبل العالي بجبّهته
إننا امتلأنا بظل الوهم والصور
إننا تركنا من الأكمام ذروتها
فكيف نخرج بالآمال والظفر؟!
□□□

يا سيد الماء قد مد السراب لنا
دنى من الوهج، محجوب بها الماء
قد غربتنا عن الإيمان غمغمة
وعطلتنا عن الأفعال أسماء
ماذا نقول لنخل جف في دمنا
تمتد منه إلى الرحمن أعضاء
كم كان يحمل أغصانا مكوكبة
وترشق الليل من رياه جوزاء

وفي ندى الفجر تسبيح وعندلته
تفيض خصباً، فما الصحراء صحراء
يا دوحة طلع البدر المضيء بها
فظل الله غمامات وأضواء
وعمت الكون أنداء مباركة
وزنر الأرض وحي فييه آلاء

□□□

حي المدينة أمّا أثامت مُدُنّا
وواحة المجد بنتُ السيف والقدّر
هنا تعلمت الأجيال عزتها
إذا أبى الجذر لا تسأل عن الشجر
مهاجرون إلى أم تَلَقَّفُهم
بالمكرّمات، وأنصار بلا حذر
خذني إلى حمزة خذني إلى عمر
خذني إلى دوحة أبهى من القمر
إلى يتيم تغذي الكون رحمته
فتضحك الأرض من عشب ومن زهر!!
(إن كان بين صرروف الدهر من رحم)
فلتلك أيامنا رَحْمٌ بلا ثمّر
يا ساحة فقدت في الروع حمزتها
تغربت عن أبي بكر وعن عمر

□□□

يا سيد الشهداء الصيد أي دم
بذلت.. في عروق الفجر ما التهابا
تضيئ ملحمة التاريخ عزته
فتنهض الأرض من رف النجيع ربي
وتفجأ الغادر الوحشي دفتته
إذا تفجر في عتم المدى شهباً
أقام دهرًا برحم الأرض فارتسمت
كرومه في ثرى وادي القنا عنباً
وجربوا قطرة منه فما يبست
على الصخور.. وما ضوء الدماء خبا
كأن أكلة الأكباد ما أكلت
وأن وحشيها السكران ما شربا
حتى اكتسى أحد وجه الربيع صبا
يبقى على الدهر، والأكام ريج صبا

□□□

لم تدر ما طعنت كف إذا طعنت
وفجرت من حشاه البرق والسحبا
يا دفع مهجته كالشمس ما انفجرت
إلا لتنهض من قلب الثرى قبباً

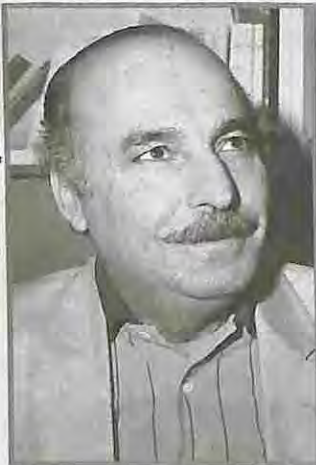
منائرا رف ذكر الله في فمها
فيهتف الكون من أصدائها قصباً
لم تدر أكلة الأكباد أن لها
من دفقة الوهج في جنح الدجى سرباً
وأن بوابة الإيمان ما انفتحت
إلا لتنزع منها الحقد والغضباً
وأن حمزة في الفردوس متكئ
على الأرائك بالأنوار قد حجباً
وهالة الحور عين حول مجلسه
والعين رفّت على أضوائه هدباً!!

□□□

يا سيد الماء قد جفت حناجرنا
وفي المدى عطش يشكو ويبتهل
وفي عروق الثرى حمى تمزقنا
فلا نخيل ولا كرم ولا أمل
يا سيد الرسل قد حادت قوافلنا
عن قبلة النور واشتطت بنا القبل
ومات عزم لدى الأجيال نغرسه
فما انتهى أجل حتى أتى أجل
وصار للخبز طعم الذل في فمنا
فكيف ينقذنا من باطل بطل
في قلبه عوج يصحو على عوج
وجفنه بانكسار القدس يكتحل!!
هل نبصر الشمس إن غامت محاجرنا
وحول القلب عن إيمانه حول؟!

شعر: د.

نذير العظمة



□□□

خذني إلى طيبة حتى أرى قدري
فقد شبت من الصلصال والحجر
كم زرتها مدنا كانت خرائطها
ملفوفة بحنين الرحل والسفر
لكن طيبة في نبضي مخبأة
كالجمر يحسد بالأضواء والشر
يا مضرم الشوق لا تبخس حرائقه
هلا سمعت فنون الآه في وتري
بيني وبين نبي الله أصرة
عهد تحملت فيه الحب من صغري
طفلا عدوت إلى الكتاب يصحبي
لغ الحروف وبرق الوحي والسور
حتى تعلمت من بدر ومن أحد
أن العصور هنا في أحمد العُصُر!!

□□□

دربت عيني على رفض الكرى أبدا
إن لم توحد بقلبي الواحد الصمد!
من نام في خيبر فلتهن مقلته
فلست عنك رسول الله مبتعدا
أصون وحيك في دهر يعانده
وأما الروح منه حاضرا وغدا
واستعيد لدى الحزات روضته
فلا أبيع يقينا بالدجى غردا
خذني إلى دوحة ما نام بؤبؤها
إلا على عزة التوحيد وابتردا
وطنت روحي على رؤياك فانتعشت
وسقت قلبي إلى دنياك فاجتهدا
يا من غفى الليل في أمن وفي دعة
هل يبصر الشمس من يستوطن الرمدا

□□□

هذه المدينة في قلبي منورة
اغفوا على بابها خلوا من الخطر
وأستريح لدى ظل بواحتها
تقدمه الروح مدا في مدى عمري
يا رفعة الوحي والقرآن أي فم
ما ابتل بالعطر أن يبتل بالسور!!
جاورت عطرك بالإلهام أنشده
حتى تفجر نور الله في فقري
ورحت استلهم الأُمِّي أغنية
تبلى في يباس القلب بالمطر

خذني إلى بابي خذني وخلّ فمي
يذوّق العطر في دقق من السحر
وخلّني في مرايا الروح أبصره
يُفتّح الوعي في قلب وفي بصر!!

□□□

لو أن غير حبيب الخلق يجمعنا
لما اجتمعنا، وجل الناس قد تاهوا
من يمتلئ بندى الفجر ما حجبت
مفازة الليل عن عينيهِ ليلاه
مضى بقلب يصفي الحب هاجسه
والحب أظهره في القلب أصفاه
تخضّل بالثور عند الصبح طلعتة
إذا دنت من رسول الله دنياه
ما رام من حرم إلا على حرم
وما أقام سوى ما سنه الله
ومن يرث القأ يصحو على ألق
ومن يلد بحبال الحق يلقاه
عباءة المجد ما رفت على بلد
إلا ويسراه ما تختار يمناه

□□□

يا من توسل إسراء فسدرته
توهجت في حمى الباري لقرباه
يا قاب قوسين ما أحلى شفاعته
عند الإله، وما أذكى حمياه
مظهر سكبها في الروح ترسله
حلاوة، من رؤى التوحيد رياه
فلا البساط بساط عند رحمته
يا دافق البحر من يعطي عطاياه؟!
لولاه لم نمتلئ نورا ومعرفة
لولاه لولاه، مات العز والجاه
يا سدره في جوار العرش خل يدي
تلامس الضوء ما أصفى مراياه؟!
دخلتها وظلال العالمين معي
ولم يكن في يقين القلب إلا هو

■ شاعر وناقد سوري، عمل أستاذاً في بعض الجامعات الأمريكية، ويدرس الآن في كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، له عدد من الدواوين والمسرحيات الشعرية والكتب النقدية.

* رمز الشاعر بالماء إلى الحياة وكأنه ينظر إلى قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾

..الندبر